تطورالخط العربي وأدوات الكتابة

مدخل : تاريخ الكتابة:

يعتبر المؤرخون بداية ظهور الكتابة حدا فاصلا بين التاريخ وما قبل التاريخ، فقبل اختراع الكتابة (التي ربما ابتكرها السومريون في الألف الرابع قبل الميلاد)، كانت المعلومات لا يمكن أن تنتشر إلا عن طريق الكلمة المنطوقة، مع كل ما يرتبط بذلك من قيود، فجاءت الكتابة حدا فاصلا بين الحضارة وما قبل الحضارة. ولم تكن الكتابة في بادئ الأمر وسيلة لنشر المعلومات والأفكار، وإنما كانت وسيلة فقط لتثبيت الصيغ الدينية، أو لحفظ مجموعات القوانين وأنساب الأسر، وغير ذلك من المسائل ذات الأهمية الاجتماعية حينذاك بالنسبة للحكام وطبقة الكهان. إن ظهور الكتابة وتقدمها التدريجي من أهم الخطوات التي خطاها الإنسان في انتقاله إلى المدنية، بل هي أعظم الأمور في تطوره الاجتماعي. وأصبح التفكير الإنساني عن طريق الكتابة عملية جماعية متصلة ومستمرة تستطيع فيها العقول أن تتفاعل الواحد منها مع الآخر في سبيل ازدياد المعرفة.

ويعتقد بعض الباحثين أن الإنسان بدأ أولا بالكتابة الصورية، وذلك بتسجيل أفكاره على شكل صور منقوشة على جدران الكهوف والأخشاب والجلود وقطع الفخار والعظام، بحيث كانت الصورة تمثل الشيء ذاته الذي يراد ذكره، فالدائرة مثلا، تدل على الشمس، وصورة الإنسان أو الحيوان تدل عليه، وفي هذا النمط من الكتابة لا يرتبط الشيء المصور بلفظه وقد وجدت الكتابة التصويرية في أماكن كثيرة خاصة في مصر وبلاد الرافدين وكريت وإسبانيا، وعند قبائل الهنود الحمر في أمريكا، وكذلك عند سكان إفريقيا واستراليا القدماء. وقد عُرف من الكتابة التصويرية حتى الآن فروع بعضها قرأه الباحثون، بحيث أصبحت معروفة الدلالة بينهم، كالهيروغليفي المصري والمسماري والصيني، وبعضها لم يهتد أحد حتى اليوم إلى حل رموزه، كالحثي والمكسيكي القديم والكانوني لقدماء الأميركيين.

وفي مرحلة أخرى متقدمة في مجال الكتابة التصويرية، تحولت الصورة بجانب رمزها إلى فكرة أو معنى، إلى لفظ صوتي، أي أن كل صورة أو رمز من رموزها لها صوت في اللغة الخاصة بالشعب الذي صورها، فغدت الصورة فكرية صوتية، وغدت الأشكال المصورة أو المكتوبة بالصورة ثانوية وفقدت مدلولها الأساسي، فلم يعد يلتفت إليها كشكل، وإنما ككلمة أو جزء من مقطع من كلمة منطوقة ذات معنى. وهكذا انتقل الإنسان من كتابته التصويرية إلى مرحلة الكتابة ذات المقاطع، والتي سادت في كتابات بابل وآشور والصين، ولا شك أن هذا النمط من الكتابة كان صعبا ومعقدا ولا يتقنه إلا المتخصصون، لذلك ظلت الكتابة في هذا الشكل محصورة في طبقة معينة من المجتمع، كالكهان ورجال الدين ورجال العلم المتفوقين، وقد استعملها هؤلاء في تدوين التعاليم والمواعظ الدينية وفي حفظ أنساب الأسر الحاكمة وتسجيل قوانين الدولة وشرائعها، ولم تكن الكتابة وسيلة لنشر العلوم والأفكار والآداب في تلك المرحلة، إلا فيما ندر. ولم تصبح الكتابة شعبية عامة بمقدور كل إنسان تعلمها وممارستها، إلا حين تخلت عن النمط التصويري واتجهت نحو الحروف الأبجدية التي هي أرقى أنواع الكتابة وأسهلها، وآخر مرحلة قطعها الإنسان في مجالات البحث عن الوسائل القادرة على نقل آرائه وأفكاره إلى الآخرين، وكذلك تدوين تاريخه وأحداثه وعلومه ومشاعره.

يعتبر ابتكار الحروف الأبجدية نقلة مهمة جدا في الكتابة، فهذه الحروف تمثل أصواتا وليست مقاطع أو عبارات أو أفكارا. لقد كان للعرب القدماء، الكنعانيين الفينيقيين، شرف ابتكار الأحرف الأبجدية ومنحها للإنسانية، وهناك مجموعات من الحروف الأبجدية الفينيقية، الأولى أبجدية أوغاريت(رأس شمرا حاليا)،

وأوغاريت بلدة صغيرة تبعد حوالي أحد عشر كيلومترا عن شمالي مدينة اللاذقية على الساحل السوري، وتتألف الأبجدية الأوغاريتية من ثلاثين حرفا، وهي أقدم أبجدية معروفة حتى الآن في التاريخ. والأبجدية الثانية هي أبجدية جبيل، وجبيل مدينة ساحلية تقع على بعد 45 كلم شمالي مدينة بيروت، وقد اكتشفت أبجدية جبيل قبل أبجدية أوغاريت، وذلك عام 1919، وكان لذلك الاكتشاف أهمية علمية كبيرة، إذ اعتبرت أقدم أبجدية إلى أن تم اكتشاف آثار أوغاريت وأبجديتها، فتبين أن هذه الأبجدية الأخيرة سبقت أبجدية جبيل بمائة سنة، أي وجدت حوالي 1400 قبل الميلاد، بينما الأبجدية الأوغاريتية ابتكرت حوالي 1500 قبل الميلاد. وأبجدية جبيل تعتبر أكثر تطورا من الأبجدية الأولى، فقد اختصرت حروفها من 30 إلى 22 حرفا فقط، واستمدت أشكالها من رموز فينيقية، بينما أبجدية أوغاريت كانت ذات أصول مسمارية عراقية، وقد أخذت شعوب العالم القديم أبجدية جبيل لسهولتها واستعملتها في كتابة لغاتها القومية. ونقلا عن أبجدية جبيل أخذ الأنباط والتدمريون وسكان الجزيرة العربية، وكذلك الهنود والفرس والأرمن والعبرانيون وعدد كبير من شعوب الشرق الأسيوي أبجديتهم.

وفي الجانب الغربي، أخذ الإغريق اليونان أبجدية جبيل، وذلك حوالي 850 إلى 750 قبل الميلاد. في البداية استعمل الإغريق الأبجدية الفينيقية كما نقلوها دون تحوير في شكلها وفي طريقة كتابتها، أي كتبوا كما كان الفينيقيون يفعلون من اليمين إلى اليسار، ولكنهم أضافوا إليها حرف "G"، ولعله بدوافع عصبية قومية عمدوا إلى تغير معالم وشكل بعض الحروف الفينيقية، كما أخذوا يكتبون من اليسار إلى اليمين بدءا من عام 304 قبل الميلاد. وتبع الإغريق الرومان، الذين أخذوا في القرن السادس قبل الميلاد أبجدية جبيل وفق الصيغة اللاتينية إلى سائر شعوب أوروبا. ومع ذلك فإن الفينيقيين، استنادا إلى جميع ما أسفرت عنه الأبحاث والمكتشفات الأثرية يظلون، حتى الآن على الأقل وإلى ما يثبت عكس ذلك، أول شعب اخترع الأبجدية.

مواد الكتابة وأدواتها

كان تطور الكتابة ملازما لتطور مواد الكتابة نفسها، ففي العصر الحجري كانت الأحجار المشحودة أقلاما، والصخور والأحجار أرضية لنقش الصور والرموز. ثم استبدلت الأحجار المشحودة بالأزاميل المعدنية لحفر الرسوم على الأحجار. وقبل أربعة آلاف سنة لجأ المصريون والحوثيون والآشوريون إلى الكتابة على ألواح الطمي أو الطين المحروق أو المجفف تحت أشعة الشمس. وبعد ألفي عام تقريبا، بدأ المصريون في الاستفادة من سيقان نبات البردي. أما الهنود والصينيون وغيرهم من شعوب الشرق الأسيوي فقد كتبوا على صفاح من قماش الحرير. وابتداء من القرن السادس قبل الميلاد شرع اليونان والرومان في الكتابة أيضا فوق ألواح من الخشب مغطاة بطبقة من الشمع، ثم ما لبث الرومان وغيرهم من الشعوب في مطلع القرن الثاني قبل الميلاد أن استخدموا أشرطة ولفائف رقيقة من جلد العجول والخراف والماعز وحتى الغزلان كأرضية للكتابة، وقد ضمت صفائح الرق أو البرشمان لبعضها بشكل كتب، وبذلك بدأ الرق في الحلول تدريجيا محل ورق البردي حتى انتشار صناعة الورق.

توصل العراقيون إلى معرفة الكتابة، منذ آلاف السنين، أما المواد التي كتبوا عليها في تلك الأزمنة الغابرة، فلم تكن على غرار ما نعهده اليوم من صنوف الورق، بل كانوا يتخذون الطين كمادة أساسية يكتبون عليها. كان قدماء العراقيين يخلطون التراب بالماء ثم يشكلون منه طوبا طينية، وبواسطة مسمار يحفرون ما يريدون تدوينه على تلك الطوب الطينية، ثم يجففونها بتعريضها للنار حتى تصبح فخارية صلبة، وهذه الطوب تعرف باسم الرُّقُم. ومن البديهي أن أولئك العراقيين الأقدمين لم يكونوا قد توصلوا

إلى الكتابة على مواد أخف وزنا وأيسر حملا وأسهل استعمالا، كالجلود والرقوق وأوراق البردي وأنواع الورق الشائع اليوم بين الناس في مشارق الأرض ومغاربها، ومن ثمة تعذر عليهم الإيغال في العلم والإكثار من التأليف بسبب هذا العائق المادي، فاقتصرت الكتابة على طبقات معينة من الناس، ولاسيما رجال الدين، ومن بيدهم شؤون الدولة، وبعض من يتولى التعليم أو يتعاطى التجارة. وإلى جانب ألواح الطين، اتخذ العراقيون قديما مواد أخرى ولاسيما الحجر، وهو أقوى من الطين على البقاء، غير أنه أثقل وزنا. وكلتا المادتين، الطين والحجر، لا يمكن الإكثار منهما لصعوبة حملهما ولضخامة حجمهما، ومن الأمثلة على الكتابات الحجرية، "مسلة حمورابي" الشهيرة، وهي قطعة واحدة من الصخر البركاني الأسود، كُتب عليها النص الكامل لشريعة حمورابي. وهناك مسلات أخرى وتماثيل ومنحوتات وأختام لا تحصى نحتت من الصخور المتنوعة، وكُتبت عليها بالخط المسماري نصوص سومرية وبابلية وأشورية، وعثر عليها في أطلال مدن عراقية كثيرة.

لم يتهيأ للإنسان أن يكتب على الجلود، إلا بعد أن تقدم في العلم والصناعة، ومع أن الكتابة على جلود الحيوانات هي أيسر منالا من الكتابة على ألواح الطين وعلى الأحجار، إلا أن استعمالها لبث محدودا، حتى استعملت بدلا منها مادة أخرى تمتاز بسهولة الكتابة عليها وبخفة وزنها، تلك هي جلد الغزال المعروف بالرق.

كان للمصريين القدماء نصيب السبق في تاريخ الكتابة والكتب، فقد كثر في العصور القديمة-في مستنقعات دلتا النيل- نبات سماه الإغريق باسم بابيروس (Papyros) ، وينتمي هذا النبات إلى فصيلة النباتات المفصلية، وأصبح الآن نادر الوجود، وقد استخدمه المصريون في شتى الأغراض. وتستعمل ساق هذا النبات للكتابة، وهي مثلثة الشكل قد يصل ارتفاعها إلى عدة أمتار، وكانوا يشقون لباب هذا النبات إلى شرائح رقيقة للغاية، ثم تضغط صفوفا الواحدة بجانب الأخرى، وبعد ذلك توضع فوقها طبقة أخرى من الشرائح، بحيث تكون متعامدة مع الأولى، ثم يطرق بالمطرقة على هاتين الطبقتين المتعامدتين من الشرائح إلى أن تلتصقا، ويبدو أن العصارة العميقة الكائنة في هذه الشرائح كانت تساعد على التصاق الطبقتين، كما يحتمل أيضا أنهم كانوا يستعملون صمغا خاصا، لأن هذا الالتصاق كان قويا، بدليل المتانة التي لم تزل تحتفظ بها إلى اليوم معظم أوراق البردي .

عاصر البردي رق الغزال وغيره من الجلود، وانتشر استعماله بوجه خاص في مصر واليونان وبعض الأقطار العربية. وقد استعمل ورق البردي للكتابة منذ زمن بعيد، وظل يستعمل حتى نهاية القرن الخامس للهجرة (القرن 11م)، ثم تضاءل شأنه بظهور الورق. وانتشر ورق البردي من مصر إلى الدول الأخرى، وظل هو المادة الرئيسة في الكتابة طوال العصر الأموي وخلال الفترة الأولى من العصر العباسي، وقد كانت أوراق البردي على شكل لفائف، ومن هنا كان شكل الكتاب في أول الأمر على هذا النحو. ظل المصريون القدماء يزرعون هذا النبات ويصنعون منه لفائفهم دون أن ينافسهم في ذلك منافس إلى أن فتح العرب المسلمون مصر، فكان هذا بداية تحول، إذ أصبح الورق العادي يكتسح البردي شيئا فشيئا.

يعد إنتاج الورق من أعظم ما توصلت إليه البشرية، لكونه مادة لينة رخيصة الثمن، خفيفة الحمل، يسهل الكتابة عليها. فبانتشار الورق كثرت الكتب، واتسعت آفاق العلم والمعرفة في سائر أنحاء العالم، وبانتشار الورق، تضاءل شأن الجلود والرقوق وأوراق البردي، حتى بطل استعمالها واختفت نهائيا. ثمة أدلة كثيرة تشير إلى أن الصينين قد ابتكروا صناعة الورق من الألياف منذ زمن بعيد، ولكن يكاد يكون من المؤكد، كما اتضح لعدد من الباحثين، أن الصناعة المذكورة كانت موجودة في بلاد الصين في القرن الثاني قبل

الميلاد، وقد بقي سر هذه الصناعة وقفا على هذا الشعب العريق في الحضارة حتى منتصف القرن الثامن بعد الميلاد. ويجمع المؤرخون قديمهم وحديثهم على أن صناعة الورق قد انتقلت إلى العالم الإسلامي بواسطة العرب، غير أن هناك بعض التباين في الرأي حول تفصيل الكيفية التي وصلت بها الصناعة المذكورة إلى أيديهم، وثمة إجماع في الرأي أن صناعة الورق انتقلت من سمرقند إلى بغداد في عهد الخليفة هارون الرشيد. وكان لنجاح الورق أثره في سرعة تدشين مصانعه، فتأسس معمل في تهامة، ثم في دمشق وطرابلس الشام، التي اشتهرت بنوع يفوق ورق سمرقند من حيث الجودة، وأخذت هذه الصناعة الرابحة طريقها إلى فلسطين ومصر وتونس والمغرب. ودخلت صناعة الورق إلى البلاد الأوربية من بابي الأندلس وصقلية، وكان لدخول الورق إلى إيطاليا عن طريق جزيرة صقلية القريبة أثره في دفع عجلة الحضارة والتمهيد لعصر النهضة في تلك البلاد، وقد استعمل كبديل للرق في السجلات الرسمية في البندقية وغيرها من الدويلات بدءا من عام 1223م، وربما قبل ذلك بقليل، وكانوا يطلقون عليه اسم الورق الشرقي أو الورق المصنوع بالطريقة الشرقية. نستطيع القول إن استعمال الورق لنشر الثقافة في أوروبا أصبح راسخا بدءا من منتصف القرن الرابع عشر، وانه منذئذ أصبحت تلك الصناعة كليا بيد الأوربيين الذين عملوا على تطويرها وتحسينها بصورة مستمرة، سواء فيما يتعلق بطرق معالجة المواد الأولية، أو بما يختص بالمعدات والآلات وسرعة الإنتاج وضخامته، وغير ذلك من المستلزمات. إن الورق من الناحية الكيميائية هو مزيج يتمتع بميزات وصفات عامة وخاصة، الأمر الذي يفسح المجال للتمييز بنجاح بين أنواعه وأصنافه. وكان الورق يصنع من الخرق البالية، ولا ريب أن الورق المصنوع من خرق الكتان والقطن هو أجود أنواع الورق، ولكن الكميات الناتجة قليلة لا تستطيع أن تسد حاجة العالم منه، لهذا فكر رجال الصناعة في استغلال لب الخشب وألياف النباتات وتحويلها إلى ورق.

استخدم الإنسان منذ زمن بعيد موادا ملونة من أصل نباتي على الغالب للرسم على جدران المغاور، وفيما بعد كحبر للكتابة على الخشب والعظام وجلود الحيوانات والحرير وغيره من الأقمشة، وكان ذلك قبل اختراع الورق بكثير، ثم ما لبث أن اكتشف صلاحية الفحم، وخصوصا السناج، كحبر أسود يتميز بالثبات وبغماقة اللون. ولا يمكن في الواقع معرفة متى ظهر الحبر الأسود لأول مرة كأداة من أدوات الكتابة، فبعض المصادر تقول أنه عثر على إناء فرعوني يحتوي على رسوم بمعلق الفحم الأسود تعود لحوالي خمسة آلاف عام، كما أن علماء الآثار اكتشفوا كتابة هيروغليفية على وعائين يعزيان للسلالة الأولى، أي لما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، ووجد "أيمري" ثمانية أوعية فخارية عليها نقوش تعود لنفس الحقبة أيضا. ومن جهة أخرى عثر بعض الباحثين على أوراق بردي دونت عليها كتابات هيروغليفية عمرها ألف عام قبل المسيح. والأدلة القوية تشير إلى أن أول من صنع حبرا فحميا بالمعنى الصحيح واستخدمه على نطاق واسع في الكتابة هم الصينيون، وذلك منذ أكثر من ألفي عام، فالحبر الصيني هو من أقدم أنواع الحبر التي صنعت تجاريا، وكان يصدر من الصين إلى كثير من أنحاء العالم، وكان تركيبه وقتئذ مختلفا بعض الشيء عن تركيبه في الفترات اللاحقة وعن صيغته الحالية.

وجد القلم منذ أن وجدت الكتابة، وتطور بمرور الزمن، وكانت الأقلام بصورها البدائية أدوات لها رؤوس حادة، منها ما صنع من الحجر الصوان والأزاميل لنقش الكتابة على الحجر والخشب، ومنها ما صنع من العيدان الخشبية المدببة الرؤوس للكتابة على الألواح الفخارية والألواح المطلية بالشمع، ومنها ما كان عبارة عن أدوات من الفحم والطبشور وقطع من الرصاص. وفي المراحل اللاحقة، وبظهور الحبر، اتخذ ريش الطيور الكبيرة والقصب أدوات للكتابة على الرق ثم الورق، غير أن تطور وانتشار

الكتابة ونمو صناعة الورق والحبر وتحسن نوعيتهما أدى إلى البحث عن أدوات مناسبة تتسم بسهولة الاستعمال، وهكذا ظهرت أقلام الرصاص وأقلام الحبر وتبع ذلك ابتداع الأقلام الكروية الرأس، وغيرها

نشأة الخط العربي وتطوره

-الخلاف حول نشأة الحرف العربي

اشتد الخلاف بين الباحثين حول جذور الخط العربي، وظهر بذلك مذهبان مختلفان، وهما المذهب التوقيفي والمذهب الاصطلاحي. **المذهب التوقيفي** يعيد وضع الخط إلى إيحاء من الله، فقد قال بعض الباحثين القدامى أن أول من وضع الخط العربي والسرياني وسائر الكتب آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة، وقال أحمد بن فارس أن الخط توقيف وذلك لظاهر قوله عز وجل: "اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم" (سورة العلق 1-8). ويذهب بعض القائلين إلى أن النبي إدريس هو أول من علم الحروف العربية عن طريق الوحي. أما **المذهب الاصطلاحي** فيقول إن الحروف العربية هي من وضع البشر، فمنهم من قال إن أصل الخط العربي هو خط الجنوب، أي المسند الحميري، حيث انتقل الخط من اليمن إلى الحيرة ومن الحيرة تعلمه أهل الطائف وقريش، بينما يرى البعض الآخر أن أصل الخط العربي هو خط الشمال، أي الخط الحيري. وهناك رأي آخر يعيد أصل الكتابة العربية إلى الخط الفينيقي، ورأي يقول إن أول من وضع الخط العربي ستة أشخاص وهم: أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت، فوضعوا الكتابة والخط على أسمائهم، فلما وجدوا في الألفاظ حروفا ليست في أسمائهم ألحقوها بها وسموها الروادف.

لقد أكدت الدراسات الحديثة، والتي تقوم على أساس علمي، أن العرب أخذوا خطهم عن الأنباط، والدليل على ذلك النقوش التي عثر عليها المنقبون المستشرقون في فترات متفاوتة، إذ أن هذه النقوش كتبت بالخط النبطي المتأخر والخط العربي القديم، وبالتالي أمكن القول بأن الخط العربي القديم مشتق من الخط النبطي المتأخر، الذي اشتق بدوره من الخط الأرامي. وهذه النقوش هي: نقش أم الجمال الأول، نقش أم الجمال الثاني، نقش النمارة، نقش زبد ونقش حران.

_ نقش أم الجمال الأول: تمثل هذه الكتابة الخط النبطي المتأخر الذي اشتق منه الخط الكوفي، وقد كتب حوالي سنة 250م على الحجر جنوبي حران، في مكان يسمى "أم الجمال"، وتقع حران في المنطقة الشمالية من جبل الدروز.

_ نقش النمارة: عثر على هذا النقش المؤرخ سنة 328م في جبل الدروز، في صحراء النمارة، وهو مكتوب على قبر امرئ القيس.

_ نقش حران: يعود هذا النقش إلى سنة 568م، وقد وجد في مدينة حران على باب كنيسة أقيمت للقديس يوحنا المعمدان، وهو مكتوب بخط أقرب ما يكون من خط النسخ.

_ نقش زبد: عثر عليه في زبد، وهو مكان بين قنسرين ونهر الفرات، وقد كتب بثلاث لغات، وهي اليونانية والسريانية والعربية، وتاريخه يعود إلى سنة 512م.

_ نقش أم الجمال الثاني: درسه "ليتمان"، وقدر تاريخه بالقرن السادس الميلادي، ومع ذلك فإن الأثر النبطي فيه واضح جدا.

تطور الخط العربي عبر العصور

وجدت الكتابة في شبه الجزيرة قبل الإسلام بزمن طويل ومرت بتطورات كثيرة، كان آخرها التحول من الصورة النبطية إلى الصورة العربية خلال القرن الخامس للميلاد، والكتابة ظاهرة بدأت تنتشر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، فأول سورة نزلت في القرآن الكريم، هي سورة العلق، وهي تشيد بفضل الكتابة وتعدها من أجل نعم الله على عباده. وقد كان الدين الجديد في حاجة إلى كتاب يدونون آيات الكتاب الكريم ويكتبون الرسائل التي يبعث بها الرسول إلى شتى بقاع العالم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث الناس على تعلم الكتابة والقراءة كأداة لمعرفة الدين ووسيلة لنشره. وتشير الروايات التاريخية إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب من بعض أسرى قريش، بعد معركة بدر الكبرى، من الذين لم يقدروا على فداء أنفسهم، أن يعلم كل واحد منهم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة.

عرف العرب الأوائل نوعين مختلفين من الكتابة، هما الخط الكوفي وخط التحرير، وعرف الكوفي بهذا الاسم لانتشاره من بلاد الكوفة في مختلف البلاد الإسلامية في عصر ازدهار الكوفة، وهو خط جليل جاف كثير الزوايا، يمتاز بالتربيع واليبس، وقد كتبت به المصاحف كما نقش هذا الخط على الحجر. وأما خط التحرير، فهو خط لين مدور، سمي أيضا بالخط المدني، وأطلق عليه فيما بعد اسم الخط "الدارج". واستعمل خط التحرير في تدوين عقود البيع والشراء والمراسلات، وكل ما يقتضي السرعة في التدوين، لأن اليد المسرعة لا تستطيع الحفاظ على استقامة الخطوط والزوايا، فهي تكتب خطا تطغى عليه الليونة والاستدارة بحكم السرعة.

كانت الحروف العربية في بادئ الأمر تكتب بلا إعجام، أي من غير تنقيط، وبلا تشكيل، ولكن لما بدأ اللحن يتفشى بعد خروج العرب من جزيرتهم العربية واختلاطهم بالأقوام الأعجمية، بدت الحاجة ملحة لضبط قراءة الكتابة العربية بالنقط والشكل حرصا من المسلمين على قراءة القرآن الكريم بشكل صحيح، وحتى يتبين موقع الكلمة من الإعراب وتغيير آخرها بتغيير العوامل التي قبلها. وتذكر المصادر العربية أن "أبا الأسود الدؤلي" (ت 67 هـ)، هو أول من ضبط حركة حروف الكلمات، وذلك أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان، فضبط الحرف المفتوح بنقطة بين يدي الحرف (داخله) وترك الساكن بلا نقط، وكان يضع نقط الحركات هذه بحبر ذي لون مختلف عن حبر كتابة المتن لتمييزها. وسار الكتاب على طريقته، ثم زاد كتاب أهل المدينة المنورة للحرف المشدد علامة على شكل القوس، طرفاه من أعلى كحرف "ب"، ثم زيدت علامات أخرى في العصر الأموي. وأدخل الخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى نحو 175هـ) بعض الإضافات والتغييرات قادت في النهاية إلى صور الحركات التي نستعملها الآن، وهي الضمة والفتحة والكسرة والسكون والشدة، التي لا يعرف بالضبط واضعها، إلا أنه من المؤكد أنها ابتكرت من قبل رجال أولوا الخط العربي عنايتهم فحسنوه وتفننوا في رسم حروفه وحركاته، وذلك منذ القرون الأولى للإسلام. أما نقط الإعجام، فأول من وضعها، وفق الروايات العربية، هو "نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر" تلميذ أبي الأسود الدؤلي، وذلك بتكليف من الحجاج بن يوسف الثقفي، في أيام خلافة عبد الملك بن مروان، وكان القصد من الإعجام منع اللبس في المتشابه من الحروف، كالباء والتاء والثاء والحاء والجيم والخاء وغيرها.

في كتب الموسوعات العلمية، مثل: "صبح الأعشى" للقلقشندى، و"الفهرست" لابن النديم، و"العقد الفريد" لابن عبد ربه، و"إخوان الصفا"، وغيرها بحوث إضافية وفصول جامعة عن الكتابة وفضلها وفي تعليم الخط وتعلمه وما ورد في ذلك من الأوصاف والآثار العلمية والأدبية. وكان "القلقشندي" أوسعهم

بحثا وإفاضة في هذا الموضوع، فقد حرر لنا أبوابا وفصولا استغرقت أكثر من مائتين وسبعين صفحة من كتابه "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" بعد طبعه، ذكر فيها ما يحتاج إليه الكاتب من القواعد العلمية والأدوات والآلات، كما وصف الدواة ومادة الحبر وصناعته وإعداده، والقلم وطريقة صنعه وكيفية مسكه عند الكتابة، وكذلك الألواح والأوراق المتخذة للكتابة، ثم يسترسل في الحديث عما يتعلق بالخط، من قواعد رسمه وهندسة حروفه، وتناسبها ومقاديرها وصورها ونقطها وشكلها بالحركات إلخ.. ثم يستطرد إلى ذكر أنواع الأقلام والخطوط التي كانت معروفة في زمنه، كما سمي لنا جماعة ممن اشتهروا بجمال الخط والكتابة.

انتشر الخط العربي بانتشار الإسلام حتى بلغ أصقاع سيبيريا، وبلاد الهند، وأطراف الصين، وأندونيسا والفلبين، وشمل بعض أقطار أوروبا، وتوغل في إفريقيا. وكتب أبناء هذه الشعوب لغاتهم ولهجاتهم المختلفة بالخط العربي بعد أن بلغتهم دعوة الإسلام. وقد وجدت الكتابة العربية فرصة للانتشار جنبا إلى جنب مع الفتوحات الإسلامية، فأصبح الخط العربي خط الأمم المختلفة التي اعتنقت الإسلام، فكتب به الإيرانيون لغتهم الفارسية، وكتب به الهنود لغة الأوردو، كما كتب به السلاجقة والعثمانيون لغتهم التركية، ومن هنا صحت تسمية الخط العربي بالخط الإسلامي. وقد دفع الإيمان بالمسلمين إلى تجويد الخط في كتابة المصاحف، فجمعوا إلى جمال المعنى جمال رسم الكلمات، وهكذا اكتسب الخط العربي الاهتمام والعناية، وأحيطت به هالة من القداسة.

ومما يذكر أن الكوفة اتخذت مقرا لخلافة علي بن أبي طالب، وكانت مركزا من مراكز تجويد الكتابة العربية، وإليها نسب الخط الكوفي، والذي يعتبر أول خط عربي خرج مع الفاتحين وانتشر بانتشار الدعوة الإسلامية، وكتبت به المصاحف. وظل الخط الكوفي المصحفي متداولا مفضلا في كتابة كلام الله المقدس حتى نهاية القرن الرابع الهجري تقريبا، عندما طغى عليه خط آخر استخدم في كتابة القرآن هو خط النسخ. وبانتقال الخلافة من الكوفة إلى دمشق وقيام الدولة الأموية، انتقل مركز العناية بالكتابة العربية إلى الشام، وعني خلفاء بني أمية بأمر الكتابة لإدراكهم مكانتها في نشر الدعوة الإسلامية والترويج لخلافتهم، واشتهر من مجوديهم "قطبة المحرر"، واخترع قطبة أربعة أقلام، وهو الذي بدأ في تحويل الخط الكوفي، واخترع قلم الطومار وقلم الجليل، وكان كاتب المصاحف للأمويين. أما هندسة الحروف العربية وتجويدها، فمن آثار الفترة الأولى من العصر العباسي، وتنسب إلى رجلين من أهل الشام، هما "الضحاك بن عجلان"، وكان ذلك في خلافة السفاح، و"اسحق بن حماد"، وكان ذلك في خلافة المنصور والمهدي، وفي هذا العهد تعددت الأقلام العربية.

تعرف العرب على الخط النسخي من الأنباط، ونظرا لسهولة الكتابة به فقد أضحى أكثر شعبية، وتكتب به الرسائل والكتب الخاصة، إلى أن جاء الخطاط العربي محمد ابن مقلة، الذي تعلق بالخط النسخي، فحسن رسمه وشكله وأدخله في كتابة الدواوين الرسمية ورسائل الخلفاء، كما زاد في تحسينه الخطاط أبو الحسن بن البواب، ثم ياقوت المستعصي. بعد نشوء البصرة والكوفة وقيام التعليم فيهما، بذلت عناية القوم بتجويد الخط الكوفي، ذلك الذي تأقلم بأشكال الأقاليم التي امتدت ما بين ما وراء النهرين شرقا إلى الشمال الإفريقي غربا، حتى بلغت أسماء أنواعه الأثني عشر على ما أورده أبو حيان التوحيدي، وهي: الإسماعيلي والمكي والمدني والأندلسي والشامي والعراقي والعباسي والبغدادي والمشعب والريحاني والمجود والمصري

أما أهم أنواع الخطوط العربية التي ما زالت مستعملة حتى الآن، فيمكن أن نذكر من بينها:

_ الخط الكوفي وقد انتشر في عهد الخلفاء الراشدين.

_ خط الثلث، وهو من إبداع المحرر اسحق بن إبراهيم وابن مقلة والمهلهل واليزيدي وابن سعد وابن البواب.

_ خط النسخ وهو مأخوذ عن الجليل والطومار ويعد ابن مقلة واضعا لقواعده.

_ خط الإجازة وتميزه بكونه يجمع بين الثلث والنسخ ويعد يوسف الشجري واضعا لأسسه في عهد المأمون.

_ خط التعليق أو الفارسي وامتيازه بدقة الحروف، وقد وضع أسسه حسن الفارسي في القرن الرابع لهجري، ويستخدم بكثرة في كتابة اللغات الفارسية.

_ خط الرقعة وسهولة كتابته، ويعد ممتاز بك واضعا لقواعد هذا الخط في عهد السلطان عبد المجيد.

_ الخط الديواني وتميزه بوجود دوران في الحروف، ويعد إبراهيم منيف واضعا لأسس هذا الخط.

_رسم الطغراء واستعماله من قبل السلاطين العثمانيين عند توقيع البراءات والمنشورات، ويعتبر هذا الخط مزيجا بين الخط الديواني وخط الإجازة.

- الخط المغربي، واستقر هذا الأخير في خمسة أنواع، وهي:

_ الخط المبسوط: ويوجد في المصاحف القديمة، وبه طبعت المصاحف المغربية الشريفة في المطابع الحجرية؛

_ الخط المجوهر: هو أكثر الخطوط استعمالا، ومن نماذجه خطوط المراسيم السلطانية والرسائل الخصوصية والعمومية، وبه طبعت الكتب العلمية بالمطبعة المحمدية أيام السلطان العلوي محمد الرابع؛

_ الخط المسند أو الزمامي: يستعمل في الوثائق العدلية والمقيدات الشخصية وما شابه ذلك؛

_ الخط المشرقي المتمغرب: هو مقتبس من الكتابة المشرقية، ولكن مغربته يد المبدعين المتقدمين وتصرفت فيه أذواقهم، وبه تزخرف عناوين الكتب، وترسم به تراجمها وخواتمها ويكتب-عادة- بحروف غليظة متداخلة بعضها في بعض، وكثيرا ما يكتب بماء الذهب، ويزخرف ويشجر بألوان وأشكال مختلفة، ومن نماذجه الوقفيات المنقوشة على اللوحات الرخامية، حيث لا تزال معلقة على جدران المدارس المرينية بفاس ومكناس وسلا، أو على جدران بعض مساجد فاس؛

_ الخط الكوفي المتمغرب: وهو ما نجده مكتوبا على رق الغزال في المصاحف والكتب القديمة، ومنقوشا في الحجر على أبواب بعض المدن والقصبات، ومحفورا في الجبص على جدران المدارس والمساجد العتيقة ومدافن الملوك والأمراء والصالحين.